المبحث الأول

الزمان والمكان

أدت ثنائية الزمان والمكان في نفسيه الشاعر المكفوف الأندلسي أَثراً كبيراً، لما لها من أَهمية بالغة في حياته وتنقلاته، وقلقه واستقراره. ونراه أَكثر من استعمال الزمان بكل أسمائه – الدهر – العمر – الليل – اليوم – الصباح... الخ. كما أَكثر من استعمال المكان؛ ولكن الزمان كان له النصيب الأوفر من المكان، فقد جعله الشاعر المكفوف محملاً يرمي عليه كلَّ أَحزانه وهمومه وشكواه، لما له من ارتباط كبير بالشاعر، إذ إنَّ الشاعر المكفوف أَحسَّ بأَنَّ الزمان هو الذي كان وراء كل ما أَصابه من قهر، وضيم، وظلمة، وعاهة.

وقد رأيتُ أن أجعل للزمان أَبعاداً ثلاثة: البعد الذاتي (النفسي)، والبعد الموضوعي والبعد(التشريحي)[1] وهي الأبعاد التي اختارها الدكتور أحمد محمد عبد الخالق، وما ستدور عليه دراستنا من أَبعاد هذا الزمن هو الزمن النفسي؛ لأَنَّه يعني الإحساس بأَنَّه معطى مباشر من معطيات الوجدان[2]؛ ولأنه العامل الأَساس الذي زامن الشاعر المكفوف.

ويشكل الزمن عند الشاعر هماً أَساسياً يحقق فيه أَحلامه، وأَمجاده، أو يفقد فيه الاثنين معاً، فكان عراكاً خفياً أَزلياً يدور بين الاثنين الزمان والشاعر وغالباً ما تكون الغلبة في هذا الصراع للطرف الأَوّل[3]، لذا أَقلق الزمان الشعراء المبصرين وأَخافهم

(1) ينظر: زمن الرجع البصري، د. أحمد محمد عبد الخالق، نشر دار المعارف – مصر، مطبعة السفير، الإسكندرية، 1981م: 38.

(2) ينظر: الزمن في الأدب، هانز ميرهوف، ترجمة: د. أسعد رزوق، مؤسسة فرانكلين للطباعة، نشر مؤسسة سجل العرب – القاهرة، 1972م: 16.

(3) ينظر: الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام، عبد الإله الصائغ، دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد، 1986م: 269.

ولم يمتلكوا قوةً حيال قياده الذي لا يضعف ولا يتسرب إليه الوهن، ولا حيلةَ لهم في تحديه إلاَّ الاستسلام له، وإذا كان هذا الحال مع الشعراء المبصرين؛

فإنّه قد شغل الشاعر المكفوف أكثر من غيره بسبب رهافة إحساسه، وتوقد عواطفه وتعذّر عليه رؤية الزمان ومظاهره وتحولاته[1].

فللزمن دلالات في حياة الشاعر تتخذ طابع الرّمز، فأجزاء اليوم الواحد الموزعة على النهار، والليل، وعلى الصباح والمساء، وعلى السحر والفجر، تمثل لديه استدلالاً لحالة مستنبطة[2].

إنَّ تغير الزمان وتقلباته جعلت منه عاملاً فعالاً في الحياة؛ (لأنّه عنصر يحمل قدرة على التغيير يجعل البيئة بكل تفاصيلها لا تستمر في حالة ثبات، بل يحركها باستمرار، بوصفه متحركاً، فاللحظة الواحدة متحركة إلى اللحظة التالية، كل حركة تحمل معها تعبيراً)[3].

وقد بينت الدكتورة فاطمة عيسى جاسم الزمن النفسي حين قالت: (ليس للزمن النفسي مقاييس محددة، فهو بعيد عن الضبط لا يخضع للتوقيتات المتداولة)[4]؛ ولكن أَثره مهم في تجسيد وتصوير الحالة النفسية من خلال مشاعر الإنسان وإحساسه بالضيق والحسرة وما يعانيه من وحشه وقلق واضطراب[5].

وقد توصل الإنسان، ولاسيما الشاعر، إلى أنّ من العسير معرفة الزمن بصورة واضحة يمكن الوقوف عندها وقفة اطمئنان وأمن لتشعب أَحداثه وتغير حوادثه وتقلب صروفه، فهو في حركة لا تتوقف وفي تغير مستمر، فهو ماضٍ وآتٍ، جارفٌ بجبروته كل تيار، وقالع بقوته كل ما يعترضه من صمّ جنادلٍ، لذا فالخوف

(1) ينظر: أثر كف البصر في شعر بشار بن برد: 64.
(2) ينظر: نقد الشعر في المنظور النفسي: 237 وما بعدها.
(3) البيئة في القصة، وليد أبو بكر، مجلة الأقلام، ع7، تموز، 1989م: 50.
(4) غائب طعمة فرمان روائياً، د. فاطمة عيسى جاسم، دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد، ط1، 2004م: 134.
(5) م. ن: 138.

من قدرته وهيمنته انعكس في تعابير ومعاني الشعراء وجاءت صور الزمن مختلفة من شاعر إلى آخر[1].

إذن فالمعركة أَزلية بين الإنسان والزمان، والأَول هو المهزوم الوحيد فيها، والخاسر الضعيف أَمام بطش الزمن وجبروته ومفاجآته الكثيرة التي يحملها بين طياته.

وأَمَّا النصف الثاني من الثنائية فهو المكان، وهو لا يقل أهمية وأَثراً عن أَخيه الزمان.

إنَّ ارتباط الإنسان بأرضه ومكانه خلّف له الكثير من المعاناة، ولاسيما إنْ أُجبر على تركه، وقد (عُرف الإنسان العربي بحبه للأرض وارتباطه بها وحنينه لكل مكان تركه)[2].

لذا قد أدرك الإنسان أَثر المكان، في حياته، ودوره الفاعل في رسم العلاقة بينه وبين العالم المحيط به، فهو حقيقة معيشته، ويؤثر في البشر بالقدر نفسه الذي يؤثرون فيه[3]. (فالإنسان من خلال حركته في المكان، يقوم برسم جمالياته، والمكان من دون الإنسان عبارة عن قطعة من الجماد، لا حياة ولا روح فيها)[4].

أَمَّا المكان عند الشاعر المكفوف، فقد كان وسيلة للتعبير عن معاناته، حتّى قرنه بالغرض الشعري وأَصبح أَداة فاعلة فيه، ودخل المكان بدلالاته الانتمائية والنفسية بكثافة عالية في الغرض الشعري، لذا أَصبح وسيلة للإفصاح عن مشاعر الحزن والحنين والغربة والخوف والقلق[5].

(1) ينظر: أَثر كف البصر في شعر بشار بن برد :63

(2) المكان في الشعر الأندلسي من الفتح حتى سقوط الخلافة، د. محمد عبيد السبهاني، دار الآفاق العربية – القاهرة، ط1، 2007م: 20.

(3) ينظر: مشكلة المكان الفني، يوري لوتمان، ترجمة: سيزا قاسم، مجلة البلاغة المقارنة، ع6، ربيع 1986م: 83.

(4) غائب طعمه فرمان روائياً: 155.

(5) ينظر: دلالة المكان في مدن الملح، لعبد الرحمن منيف، محمد شوابكة، مجلة أبحاث اليرموك – الأردن، مج 9، ع2، 1991م: 19.

وأَهمية المكان لدى الشاعر العربي تتضح بقول أَبي هلال العسكري (ت 395هـ): (كانت العرب في أَكثر شعرها تبتدئ بذكر الديار والبكاء عليها والوجد بفراق ساكنيها)[1].

ومن هذا كله أَصل إلى أنَّ الزمان والمكان أكثر اقتراناً وأَشد التحاماً مما يُتصوّر... فالشعراء بسبب هذا الاقتران كثيراً ما يستعيرون الأَلفاظ الدالة على الزمان للتعبير عن المكان[2].

إنّ من أَهم مفردات الزمان التي تؤدي أثراً بارزاً في حياة الإنسان هو الليل لما تمثل ساعاته من اهتمام لدى الشعراء، ولاسيما المكفوفين الذين يعانون أزمات نفسية وظروف قاسية، والليل يكون فيه التفكير والتأمل فهو (أكثر الأزمنة إثارة لمعاني الوحشة والظلمة والتوحد مع النفس)[3] فتكون المشاعر صادقة والآلام هادئة فيصبح فيصبح زمناً نفسياً خاصاً لا يخضع لمقاييس زمنية محددة[4]، فقد مثل وقت الليل حالة حالة سوداوية مظلمة، تضاف إلى ظلمة الشاعر المكفوف.

قال ابن هذيل في الليل: **(من الطويل)**

وليلٍ بَغَى فيه الغُرابُ جناحَهُ ... ولَمْ يَنفصِل عنه ولكنه عَمِي
دجا فكأَنّي من حَنَاياهُ،أَو أَتى ... جريمةَ سوءٍ في سَرِيَرة مُجْرِمِ
إذا قُلتُ أَين الصبح فاضت سُدُولُهُ ... عليَّ كأَنّي مستغيثٌ بأَبكَم
وأفزَعُ من إطراقِهِ فكأَنَّهُ ... يراصد أَطلاقي نجيَّ التكتُّمِ[5]

(1) كتاب الصناعتين – الكتابة والشعر:لأبي هلال العسكري (ت395ه)، تحقيق: علي محمد البجاوي، البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية – بيروت، ط1، 1952م: 452.
(2) ينظر: دراسات فنية في الأدب العربي، د. عبد الكريم اليافي، مطبعة الحياة – دمشق، 1972م: 1972م: 250.
(3) وحدة الزمان والمكان في شعر أبي الطيب المتنبي، حيدر لازم، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب الآداب – جامعة بغداد، 1991م: 60.
(4) ينظر:الزمن في شعر ابن حمديس الصقلي (ت 527هـ)، ختام محمد حسين العبودي، رسالة ماجستير، كلية التربية للبنات – جامعة بغداد، 2002م: 11.
(5) شعر يحيى بن هذيل: 122 – 123.

ظهر تشاؤم ابن هذيل في هذه المقطوعة من الليل وظلمته، حتّى إنّه جعله يزيد ظلمته ظلاماً، بل إنّه يصور نفسه كأَنّه صاحب جريمة، فلا يستطيع الاستقرار، وقلقه يتزايد حيناً بعد حين. لذا انتظر الصباح بفارغ الصبر ولكن بلا جدوى وكأَنّه يستغيث بأبكم، بل إنّه كره الليل؛ لأنّه يحمل مفاجآت سيئة له.

لم يكن ابن هذيل متفائلاً من الزمان، ولاسيما الليل، لما يحمله من مشاعر وآهات أَتعبت الشاعر، وأشعرته بالملل والخوف في الوقت نفسه، لذا اتجه شاعرنا إلى الصباح لينادي، لقوله:

(من البسيط)

كأَنَّ ليلِي مِمَّا طالَ جانبُهُ ... أخافَ صُبحِيَ حتَّى ضلَّ أَو هربَا
كأَنَّ صُبحيَ يخشى أنْ يؤنِّبه ... أَهلُ الهَوَى فاختفى بالليل وانتقبا[1]

إنَّ معاناة ابن هذيل من الليل كثيرة ومستمرة لربما بسبب ظلمته التي خلفها فقد البصر، فيزداد ظلاماً، ورُبّما لا يريد أَنْ يكون وحده فتهجم عليه الهموم والأَوجاع، لذا صور أَنّ الليل قد شاب من همومه؛ ولكن لا يريد تركه فهو يشاركه في كل شيء حتى سد الباب على مجيء الصباح لقوله: **(من البسيط)**

كأَنَّ ليلي وفي أَعلاهُ أنجُمُهُ ... لمّا تأَوهتُ في ظلمائه شابا
كأَنّ ليلي شريكي في الهوى فإذا ... فكّرتُ فكَّر والبلوى لمن خابا
كأَنّ ليلي وصبحي فيه محتجبٌ ... غيرانُ سَدَّ على معشوقتِي بَابَا[2]

إنّ استخدام ابن هذيل لأداة التشبيه (كأن) في بدء كل بيت من مقطوعته يدل على قلقه وارتباكه، لذا كرّر هذه العبارة (كأن ليلي) في الأبيات الثلاثة ليؤكد ما يتخلل الليل من هموم ومصائب لديه.

(1) شعر يحيى بن هذيل: 72.
(2) م. ن: 72.

ويستمر ابن هذيل في بيان أَهمية الزمان والمكان وما يشكلان من أَهمية نفسية، فقد جاء بصورة وصفية زاوج فيها بين الزمان والمكان لقوله:

(من الطويل)

كأَنّ جَنَى الخيري في غَبش الدجى نسيمُ حبيبٍ زارَ عاشقَهُ سِرًّا
كأنَّ ينابيعَ المياهِ مَرَاجلٌ تفور وقد أَذكت لهن الحصى جمراً*(1)
جمراً*(1)

إنَّ تمكن ابن هذيل من الوصف ليس بالجديد، وإنّما أبدع إبداعاً كبيراً في هذا الغرض، لذا جاءت هذه الصورة الحسية التي مثلها في وقت الصباح المبكر وهو يشم رائحة الخيري، وكأنه نسيم عاشق جاء للقاء معشوقته سراً، وقد وصف الينابيع وشدة تدفق مياهها وكأَنّه قدرٌ يغلي فيه ماء، ويبدو أَنّ ابن هذيل كره الليل كله حتى آخره، وان كان ينبئ بولادة يومٍ جديد، فقد أعاد (غبش الصباح) في بيت آخر حين قال في الفراق:

(من الكامل)

لَمْ يَرحلُوا إلاّ وفوقَ رحالِهم غيمٌ حكى غَبَش الصَّباحِ المعتلي(*)(2)
المعتلي(*)(2)

وقد بكى على الديار، واستذكر الربع والطلل، فراح في وصفها أَيما وصف، داعياً إنّه وجد لذلك بوحاً لمشاعره وأنفاسه، وما اكتفى بهذا البكاء والصراخ بل راح يطلب عدم اللوم على هذه المشاعر مهما كبرت(3). لقوله: **(من الخفيف)**

(*) شبه المياه في آخر البيت بالمراجل وهي القدور واحدها مرجل. (لسان العرب: مرجل).
(1) شعر يحيى بن هذيل: 85.
(*) الغبش: شدة الظلام، أو ظلام آخر الليل. (الصحاح: غبش).
(2) شعر يحيى بن هذيل: 116.
(3) ينظر: المكان في الشعر الأندلسي من الفتح حتى سقوط الخلافة: 47.

لا تلمنـــي علـــى البُكَـــاء بـــدارٍ أهلُهَـــا صَـــيّروا السَّـــقامَ ضـــجيعي
جعلـــوا لـــي إلـــى الوصـــل ســـبيلاً ثـــمَّ ســـدّوا علـــيَّ بـــاب الرُّجـــوعِ[1]

لقد علق ذهن الشاعر بوصف مكان الأهل والأحبة، حتَّى أَصبح خاصيته في نشاطه الفني يبدع في التعبير من خلاله عن همومه ومآسيه التي علقت بذاكرته فحركت وجدانه للتعبير عن مكنوناته الذاتية[2].

أَمَّا ابن الحناط فقد قال: **(من البسيط)**

يا دار عَلوَة قد هيجتِ لي شَجَناً وزدتنـــي حُرقَـــاً، حُييّـــت مِـــن دار
كم بتُّ فيك على اللذات مُعتكفاً واللّيـــلُ مُـــدَّرعٌ ثوبـــاً مِـــن القـــار
كأنـــه راهـــبٌ فـــي المســـح مُلتَحـــفٌ شـــدَّ المجـــد لـــه وَسْـــطاً بزُنّـــار
يُـدير فيـه كـؤوسَ الـراح ذو حـورٍ يـدير مـن طرفـه ألحـاظ سـحّار[3]

إنّ أسلوب ابن الحناط في التفجع على الديار، والتوجع للمدن والآثار، يتخلله الكثير من العواطف والمشاعر الجياشة، التي عبر عنها حتَّى المتلقي شريكه في تجربته التي عاشها وبجعله يحس بها.

فلقد مزج الزمان بالمكان بثنائية معروفة، مبيناً حالته المنكسرة لخراب تلك الدار التي قضى فيها أحلى أيام عمره وصباه، إلاَّ أنّ عاهته ظهرت بعض الشيء رُبّما بغير شعور، حين قال: (واللّيلُ مُدَّرعٌ ثوباً من القار) هذه الظلمة الحالكة ترافق الشاعر المكفوف في أغلب أبياته.

إنّ خوف الشاعر المكفوف من الزمان واضح بارز شكّل هماً كبيراً فوق همومه، ففي الغالب لا تخلو قصيدة من قصائد الشعراء المكفوفين من غدرات الزمان، وتغيراته واختلاف أحواله، وهذه الاختلافات شملت كل البشر من شاعر

(1) شعر يحيى بن هذيل: 97.
(2) الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي – دراسة: 243.
(3) نفح الطيب: 1/ 503.

وأَديـــــــب وغيرهمـــــــا، لـــــــذلك قـــــــال ابـــــــن الحنـــــــاط:

(من الكامل)

لـم يخـلُ مـن نـوبِ الزمـانِ أَديـبُ كـــلاّ فشـــأن النائبـــاتِ عجيـــبُ
وغضـــارةُ الأَيـــام تـــأَبى أَنْ يُـــرى فيهـــا لأبنـــاء الـــذكاءِ نصـــيبُ
وكـذاك مَـنْ صَـحِبَ الليـالي طالبـاً جـــدّاً وفهمـــاً فاتـــهُ المطلـــوبُ[1]

يبدو أَنَّ الخوف من الزمان، ومن الشر الذي يدخل في نسيجه، وحركته قد تأَصل في نفس الشاعر المكفوف ولاسيما الأَندلسي بصورة واضحة.

ولابن الحناط أيضاًً في مدح أبي عامر بن شهيد: **(من البسيط)**

لـولا النسـيمُ الـذي تـأَتي الريـاحُ بـه إذا تضـوّع عن عَرْفِ الحِمَـى الأَفُقُ*
لَـــمْ أَدرِ أَنّ بيـــوت الحـــيّ نازلـــةٌ نجداً ولا اعتـادني نحـو الحِمَـى القلـقُ
مـا فـي الهـوادج إلاَّ الشَّـمسُ طالعـةٌ ومـــا بِقَلبـــي إلاَّ الشـــوقُ والأَرَقُ**[2]

يستعمل ابن الحناط حواسه في بيان المواضع والأماكن، وقد كان لحاسة الشم النصيب الأَوفر في معرفة هذه الديار وما فيها من رياح زكية، ونسائم عطرة ولهذا يحاول الابتعاد عن أحزانه وحرمانه ونقصه. إلاَّ أنها تعود إليه، لذا قد شعر بالقلق، والقلق حالة أشبه ما تكون في طبيعتها الشعورية وفي انفعالات الجسم المصاحبة لها بحالة الخوف. والفارق الوحيد بينها أنّ للخوف مصدراً واضحاً معلوماً بالنسبة إلى الخائف، في حين مصدر القلق غير واضح أو معلوم بالنسبة إلى الذي يعانيه[3].

---

(1) م. ن: 3/ 288 – 289.
(*) تضوع: اشتد ضوعه (رائحته)، وضاع الشيء: تحرك فانتشرت رائحته، وضاعت الرائحة: طابت وفاحت. (الصحاح: ضوع). والعرف: الرائحة الطيبة (لسان العرب: عرف).
(**) الهوادج: جمع هودج، اداة ذات قبة، توضع على ظهر الجمل لتركب فيها النساء. (لسان العرب: هدج).
(2) جذوة المقتبس: 65.
(3) ينظر: النفس انفعالاتها وأمراضها وعلاجها: 2/ 161.

وقد مثلت أَبيات ابن الحناط تأملاً كبيراً في صدق المشاعر، وحرارة التعبير وشمولية الفكرة، لذا حاول أَنْ يرسم التفاؤل على وجه أَبياته؛ ولكن التعاسة والحزن سبقاه إلى ذلك.

وهذا ابن سيدة[1] (ت 458هـ) كان لديه إحساس بالتطلع إلى التمتع بملاذ الحياة؛ ولكنه خاب فيها، وأَبى الزمان إلاَّ أَنْ يذيقه صروفه ونكباته، فقد قال:

(من الطويل)

ومالي مِن دَهري حياةٌ أَلَذُّهَا فتجعلها نُعمَى عليَّ وتمتنّا[2]

لقد خلّف الدهر لابن سيدة ضعفاً، أَدى به إلى عدم إمكان التحدي أو الوقوف بصلابة وعناد أَمام الأحداث.

وقد شعر ابن سيدة عندما ابتعد عن أهله وديار ه بغربةٍ سيطرت عليه وعلى إحساسه، فجعلته بعيداً عن واقعه الاجتماعي لذا قال: **(من الطويل)**

غريبٌ نأى أَهلُوهُ عنه وشَفَّه هواهم فأمسى لا يقرُّ ولا يَهنَا[3]

أَمّا الحصري القيرواني فقد أحب مدينته – القيروان – حباً كبيراً فوجدته يكثر فيها قوله للشعر بأوصاف رائعة، ومنها قوله: **(من البسيط)**

أَلا سقى الله ارضَ القيروان حياً كأَنّه عبراتي المُستهلَّاتُ

(1) علي بن احمد بن إسماعيل المعروف بابن سيدة، المكنى بأبي الحسن،كان إماماً في اللغة وفي وفي العربية حافظاً لهما على انه (كان) ضريراً، وقد جمع في ذلك مجموعات أربى فيها على من تقدمه، وله مع ذلك في الشعر حظٌ وتصرف. وله تواليف حسان منها: (كتاب المحكم في اللغة) ؛ (وكتاب المخصص) ؛ (وكتاب الأنيق) تنظر ترجمته:مطمح الأَنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس للفتح بن خاقان الأندلسي (ت 529هـ)، دراسة وتحقيق: محمد علي شوابكة، دار عمان، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط1، 1983م: 291 وما بعدها؛ كتاب الصلة: 334 – 335؛ بغية الملتمس: 388؛ المغرب: 2/ 259؛ نفح الطيب: 4/ 27 وصفحات متفرقة من هذا الكتاب.

(2) مطمع الأَنفس: 293.

(3) م. ن: 292.

فإنّهـــا لِـــدَة الجنـــات تُربَتُهـــا ... مســـكيَّةٌ وحصـــاها جوهريـــاتُ
أَلا تكـن فـي رُباهـا روضـةٌ أُنـفٌ ... فإنّمـــا أَوجـــه الأَحبـــاب روضـــاتُ
أو لا يكـن نهَـرٌ عـذبٌ يسـيلُ بهـا ... فـــإنّ أَنهارهـــا أَيـــدٍ كريمـــاتُ
أَرضٌ أَريضـــةُ أَقطـــار مباركـــةٍ ... لله فيهـــا بـــراهينٌ وآيـــاتُ[1]

استخدم الحصري الأوصاف المادية للطبيعة التي تضمنتها القيروان لينقل الأوصاف التي شعر بها بحواسه، فهي في نظره كالجنة في نعيمها، بل إنّ أهلها لهم وجوه كالروضات في بهائها ورونقها.

لقد نسق الحصري بين الدعاء والتشبيه، كما نسق بين عاهته وحرمانه، وبين مكانه الذي ولد فيه، وشكوى هجره.

جعل هذا المكان المألوف، ينم على طيب أرضه، ونماء عشبه، وتوافر مياهه، وكرم أهله، وبركة ثمره، ورضاء ربه.

وله يودع قبر أَبيه بالقيروان وقت جوازه للأَندلس: **(من الطويل)**

أَبِـــي نَيِّـــرُ الأَيَـــامِ بعـــدك أَظلمـــا ... وبنيـــانُ مجـــدي يـــوم مِـــتَّ تَهـــدَّما
وجسـمي الـذي أَبـلاه فقـدُك إن أكـن ... رحلـــتُ بـــه فالقلـــبُ عنـــدك خيمَّـــا
ســـقى اللهُ عينـــاً مَـــن تعمـــد وقفَـــةً ... بقبـــرك فاستســـقى لـــه وترحمـــا
وقـــال ســـلامٌ والثّـــواب جـــزاءُ مَـــن ... ألـــمّ علـــى قبـــر الغريـــب فَســـلَّما[2]

إنّ صدق الإحساس الذي أعتلى المقطوعة، واضحٌ بارز، ولاسيما أَنَّ الشاعر أستطاع أَنْ يزاوج ما بين رثاء الأَب وفراق المدينة، في موقف وداع يدمي القلب لقسوته وحنينه لهذا المكان، فأَحب مدينته وعاملها معاملة الحبيبة، فمدحها ووصفها وفخر بها، وعاتبها ورثاها.

(1) أبو الحسن الحصري القيرواني: 126.
(2) أبو الحسن الحصري القيرواني: 129.

فلشدة تعلقه بأبيه، تعلق بقبره فأحبه، حتَّى إنَّه أَخذ من ترابه في وداعه له، ليكون له طيباً، يستغني به عن كل طيب. لقوله:

(من الوافر)

رحَلتُ وها هُنا مثوى الحبيبِ ... فَمَن يُبكيكَ يا قبرَ الغريبِ
سأَحمِلُ من ترابِكَ في رحالي ... لكي أَغنى به عن كلِّ طيبِ[1]

لم يكن حبه للقيروان مدينته دون غيرها، بل إنه أَحب دانية كذلك مع أنه لم يحب مدينة بقدر القيروان التي ضمنها في الكثير من أبياته، أَمَّا دانية، فلرُبّما قال فيها لمجاملةِ أهلها، أو واليها. لقوله: **(من الوافر)**

أَلم ترني نَدَمْتُ على ارتحالي ... وغالَطْتُ العداةَ بسوءِ حالي
وما بلدٌ كدانيةٍ ولكن ... أُسَلِّي النّفس عنها بالمُحالِ[2]

ومن الواضح أنّ الشاعر اعتاد التنقل بين المدن في الأَندلس، علَّهُ يجد كالقيروان مدينة فيسكنها وينعم بها، وتقر بها عينه.

وقد سبب له تنقله هذا كثيراً من الحزن والكآبة، بل أَدى به إلى حدوث منازعة في نفسه، فعندما أَراد الرحيل عن المرية، دخل على المعتصم صاحبها وأنشده: **(من مخلّع البسيط)**

محبتي تقتضي ودادي ... وحالتي تقضي الرَّحِيلاَ
هذَان خصْمانِ لستُ أَقضِي ... بينهُمَا خوفَ أَن أَمِيلاَ
ولا يزالان في اختصام ... حتَّى نرى رأيك الجميلاَ[3]

(1)م. ن: 129.
(2) م. ن: 131.
(3) أبو الحسن الحصري القيرواني: 131 – 132.

وكأنه يريد من المعتصم أَنْ يطلب منه البقاء، لحنينه لغير المرية.

تخبط واضح بالأفكار، لفقده أُلفة المكان، والأُلفة متأتية من أُلفة ساكنيه، كما يبدو، فلم يشعر الحصري بهذه الأَلفة إلاَّ في القيروان، أَو مع ابنه – عبد الغني – في أي مكان كان؛ لأنّه كان يشعر بالأَمان والاستقرار مع ابنه فعندما مات فقدهما ولن يعودا إليه. لقوله:

(من الخفيف)

كان عبدُ الغنيّ للعَينِ نورا ... ولقلبي هُدىً وللعيشِ طيبا
كان شيبى به شباباً فلما ... بان عنِّى رَدَّ الشباب مشيبا
كنت في غربتي كأَنَّي به في ... وطني فانقضَى فعُدتُ غريبا
لم يدع فقدُهُ لمغنًى معنىً ... فخلا آهلاً وضاق رحيبا
أَخطأتني الخطوبُ ما أَخطأَتْه ... ثم إنّي أصبت لما أُصيبا
لستُ أنسى مقامهُ ومقامي ... وكلانا مثلُ القتيل خضيبا[1]

إنّ ربط الزمان والمكان، والعاهة والشعور بالنقص وفقد الأَحبة، كان طبيعياً أَنْ يحصل؛ لإنَّ الشاعر المكفوف أَسيرٌ لعاهته، موثوقٌ بظلمتها، وقد بيّن في البيت الخامس عنفوان الزمان وجبروته وقسوته في سلب مسراته، وقد تركه وحيداً يقاسى وحدته، بل إنَّ الشاعر في بعض الأَحيان يفصح عن غضبه صراحةً لبعض المدن والمواضع.فقد قال في طنجة:

(من الطويل)

سئمتُ حياتي والمقام بطنجةٍ ... كأَنَّ بلادَ اللهِ غير عِرَاضِ[2]

هذا اليأس والتضجر من الأَماكن والمواضع التي أَقام بها الحصري، لم يكن إلاَّ بسبب أُلفته للقيروان مسقط رأَسه وذكريات طفولته، ولذا فقد أَحس بأَنّه غريب بعدما

(1) م. ن: 278.
(2) م. ن: 123.

تركهـــا. لقولـــه: **(مـــن البسيط)**

أَصـبحتُ فـي غربتـي لـولا مكـاتمتي بكتنـــي الأَرضُ فيهـــا والســماواتُ[1]

هنا غربة مكانية قاسية أَلمت بالشاعر وتركته في أَحضان الشوق والحنين، متحسراً على مدينته التي أحبها.

إنَّ لنفسية الشاعر المكفوف – الحصري – تقلّباً واضطراباً، أَوصلاه إلى القلق من المكان والزمان على حدٍ سواء، وقد اتضح في أَبياته، لقوله: **(من الطويل)**

حَمِـــدْتُ زمـــاني فيـــه ثـــم ذَمَمتُـــه وما زال هذا الدهرُ يُهْجَى ويمدحُ[2]

ويأَتي الحصري إلى مفاصل الليل أو أَجزائه ويأَخذ جزءاً من الليل، ويبدو أَنَّ الليل أرتبط بخيبة الأَمل لدى الشاعر، فقد قال فيه: **(من الطويل)**

دجـى اللّيـل صُـبحٌ فيـك إذ أَنـتَ مطلَـعٌ لكـــل هـــلالٍ أَطلعتُـــهُ سُـــعودُ
دهتنـــا الليـــالي بـــالنِّوى فتفرَّقـــت جـــآذرُ كانـــت تلتقـــي وأَســـودُ(*)
دوائـــرُ ذي الـــدنيا تـــدور بأَهلهـــا فتـــنقصُ أَحـــوال الفتـــى وتزيـــدُ
درايَ ســـعِدى للأُفـــول تجانَحَـــت فبـيضُ الليـالي فـي عيـونيَ سـودُ[3]

نقل الشاعر لنا ترقبه وقلقه من الليل وظلمته، وإنْ كان لديه بصيص أَمل بانتهاء الليل، وإفصاح الصباح، واصفاً بحكمته حال الدنيا وكيف هي تعطي وتحرم، تغني وتفقر، كل هذا الشعور جاء من الليل ومن ظلمته مما جعله يبغض بياض الليالي وأفراحها؛ لأنّها أوجدت لديه أَوهاماً وأَحزاناً لا تنقضي.

(1) أبو الحسن الحصري القيرواني: 125.
(2) م. ن: 217.
(*) جآذر: جمع للفظة جُؤذر وهو ولد البقرة الوحشية. الصحاح:جأذر.
(3) أبو الحسن الحصري القيرواني : 219.

وفي غير هذا الموضع جعل الحصري الليل مساوياً للصباح، وهما من النقائض؛ لإنّ الأول يدل على العتمة والظلمة، والثاني يدل على الضوء والنور، فجمع بينهما في قوله:

(من الطويل)

سواءٌ عليَّ الليل والصبح بعدهم ولو بتُّ فيهم لانجلى كلُّ حندِسِ[1]

إنّ ارتباط ظلمة العاهة بظلمة الليل شيءٌ طبيعي، فكلاهما ينجلي إذا بات الشاعر بقرب الحبيبة. ولا شكَّ في أنّ الصبح والليل عند الشاعر المكفوف سواء؛ ولكن بلقاء الحبيبة ورؤيتها تنجلي هذه العاهات ويزول ذاك السواد إلى أَمل وتفاؤل وبياض.

ومن هنا فهو يؤكد إزالة الظلمة عنه إنْ زارهم أَو ذكرهم حتَّى، لقوله: **(من الطويل)**

سويداء قلبي للاحبة منزلٌ وذكرهم في ظلمة الليل مؤنسي[2]

وعلى الرغم من كل ما قاله شاعرنا- الحصري – حول الدهر فقد أَصبح على يقين بأنه لن يتركه بسلام، وإنّ غدراته متتالية لا تنقضي، وقد جسّد هذا بقوله: **(من الطويل)**

ظننت بأن الدهر يبقى مسالماً وهيهات حرب النائبات كظوظ*[3]

(1) أبو الحسن الحصري القيرواني: 223.
(2) م. ن: 223.
* كظوظ: شديدة. (الصحاح: كظظ).
(3) أبو الحسن الحصري القيرواني: 228.

وفي النهاية اكتشف الحصري أنْ ليس من الزمان جدوى، بأنْ يعطيه ما سلبه منه، فراح يهجوه، ويهجو أَهله لقوله: **(من الكامل)**

خبُــث الزمــانُ كمــا تَــرينَ وأَهلُــهُ كــل امــرئٍ فــي وُدِّهِ تــدليس[1]

ويطالعنا الأعمى التطيلي بسخطه على الزمان وكرهه له، فقد تيقن بأنّه غدار لا أمان له، وخائن لا وفاء فيه، فراح يعاتبه ويعاتب صروفه ودنياه، فقال: **(من الطويل)**

عتــابٌ علــى الــدنيا وقــل عتــابُ رضينا بما ترضى ونحنُ غضابُ
وقالــتْ وأَصــغينا إلــى زور قولهــا وقــد يســتفز القــولُ وهــو كــذابُ
وَغطَّــتْ علــى أَبصــارنا وقلوبنَــا فطــالَ عليهــا الحَــوْمُ وهــي سَــرَابُ
ودانــت لهــا أَفواهُنــا وعقولنــا وهــل عنــدَها إلاَّ الفنــاء ثــوابُ
وتلــك لعمــر الله، أمــا ركوبهــا فَهُلــك، وأَمــا حكمُهَــا فَغِــلابُ[2]

غضب التطيلي من الدنيا واضح، وإن كان قد رضي بما ارتضته له، وهو يحاول أنْ ينقل الحديث كأَنَّه يتكلم معها وتكلمه، ويعرف أنها كاذبة إلاَّ أنه مرغم على سماع حديثها والإصغاء إليه. وقد خضع لأحكامها والتزم بقوانينها إلاَّ أنَّها لم تهبه إلاَّ الحرمان والفناء لقوله: (وهل عندها إلاّ الفناء ثواب)، وربما شعر التطيلي ببعض من الراحة والاستقرار من تقلب الزمان عليه، إلاّ انه سرعان ما ينقلب عليه فيغير أَفراحه أحزاناً، لذلك قال: **(من البسيط)**

(1) م. ن: 421؛ وللمزيد من ثنائيات الزمان والمكان في شعر الحصري، ينظر أبو الحسن الحصري القيرواني: (121، 123، 1125، 129، 131، 215، 219، 223، 225، 234، 236، 276، 283، 303، 439).
(2) ديوان الأعمى التطيلي: 8.

كانتْ يدُ الدهرِ عندي فاستبدَّ بها ما أَعْلَمَ الدهرَ باسترجاعِ ما يهبُ[1]

فالتطيلي يحذر الناس من الدهر، وأنْ لا يغفلوا عنه؛ فالدهر أَبى إلاَّ أَنْ يفرق بين المرء وزوجه، فقد قال: **(من البسيط)**

يا آخذي بذُنوبِ الدهرِ، بادرةً من عتبه لم أَكُنْ منها على حذرِ
هي الليالي ولم تجهل عواقبها فانظر وأَنتَ على حالٍ من النظر
وقد صَفَوتُ فردني، ثم معذرةً إليكَ من كَدَرِ الأَيام لا كَدَري
وأَعلم بأَنّ الليالي غير آليةٍ حتَّى تُفرّقَ بين القوسِ والوترِ[2]

فأحاسيس الشاعر العميقة أَنَّ الزمان يجب الحذر منه، والاستعداد له؛ ولتقلباته الكثيرة وبعد ذلك مع أن التطيلي يلين للزمان في مواضع أخرى بعد مقاومته والاستعداد له ولصروفه، وبعد ذلك يسوغ هزيمته فيقول: **(من الكامل)**

لَعبتْ صروفُ الدهرِ بي وبهمتي من بعد تجربتي لها ومراسي
كالكأسِ طاف بها المديرُ فلم يكن لي ظئرها وغذا صريعَ الكاسِ
أدعوك بين صعودها وصَبُوبِها كالعشقِ بين الشَّيب والإفلاسِ[3]

يريد التطيلي أَنْ يبين كيف أَنّ صروف الدهر أضعفته بعد تلك الخبرة التي تعلمها من الحياة فقد سقط وسحقه الزمان كغيره من البشر.

(1) م. ن: 16.
(2) ديوان الأعمى التطيلي : 66.
(3) ديوان الأعمى التطيلي: 75.

ويتواصل التطيلي في هجاء الزمان والتحذير منه، فقد قال قصيدة يرثي بها: **(من الكامل)**

لا تركننَّ إلى الزمانِ وَصَرْفه فَتَكَ الزمانُ بآمنٍ وَمَرُوعِ[1]

لم يكن سخط التطيلي من الزمان فحسب، بل إنّه سخط من الزمان والمكان معاً، وقد صوّر ذلك حين صارت إشبيلية (حمص) مكاناً معادياً له، فقد قال:

(من البسيط)

مللتُ حمصَ وملتّني فلو نَطقَت كما نطقتُ تلاحَيْنَا على قدرِ
وسوّلت لي نفسي أَن أُفارقها والماءُ في المزن أصفَمنه في الغدر
هيهات بل رُبّما كان الرحيلُ غداً كالمالِ أُحيي به فقراً من العمرِ[2]

إن ملل التطيلي من إشبيلية (حمص) دعاه إلى إبراز صورة نفسية في أَبياته مزج فيها المكان بالزمان، وقد صوّر المكان أنه مكان معادٍ، لا يرغب المكوث فيه، بل إنَّه يريد الرحيل عنه، لذا قام بالهروب من الزمن الحاضر نحو الغد، فهو زمن ذاتي وشخصي ولدته الظروف المعيشة والأدبية والسياسية، عاناه الشاعر التطيلي ووصفه كما عاناه وأحس به.

ولم يكتفِ بذلك بل إنّه أصبح يشعر بأَنَّ المكان قد ضاق عليه، والزمان قد اتسع به، لقوله: **(من الطويل)**

فمالِيَ قد ضاقت عليّ مسالكي وساعات ليلي في النهار شهورُ[3]

(1) م. ن: 80.
(2) م. ن: 49.
(3) ديوان الأعمى التطيلي : 63.

وفي نهاية المطاف يستسلم الشاعر ويخضع كغيره من البشر للقدر الذي صنعه الله، وهو يحاول أَنْ ينسى ما مضى من تهكمه على الزمان والدهر والدنيا، وبعبارات هادفة تنم على ضعفٍ كبير، وحيلة ذليلة، علّ زمانه يرحمه، فقد قال:

(من البسيط)

أمـــا الزمـــان فـــلا أشْـــكو ولا اذَرُ ... لا يَصْـنـعُ الـدهرُ مـالا يَصْـنـعُ القـدرُ
لـــو أنْ حظّـــيَ مـــن دنيـــايَ أُمْنَحُـــهُ ... جـــاءتْ إلـــيَّ الليـــالي وهـــي تعتـــذرُ
مـاذا أَقـولُ وقـد أخنـى علـى جَـدتي ... رَيْـبُ الزمـانِ وخطـبٌ كلُّـهُ ضـرَرُ[1]

إنّ المكابرة التي تخللت أَبياته جلية واضحة، لكنها لم تسم النص بضعف الشاعر، وتقلباته النفسية، وإبداء الشكوى، التي تمخضت عن تجربة مرة عاشها الشاعر، متمثلة بتنقله النفسي ما بين القلق والاستقرار، الحقيقة والخيال، ناشداً بذلك من يرحمه وينظر إليه، فهو لم يرحمه أَحد، ولا حتَّى الزمان، على الرغم من عاهته وظلمته، وعدم تكيفه مع المجتمع.

(1) م. ن : 63.

أَمَّا أبو القاسم السهيلي فله في كل ذلك قوله: **(من الطويل)**

ولمَّـا رأيـتُ الـدَّهرَ تسـطو خطوبُـهُ بكـل جليـدٍ فـي الـورى أَو هـداني
ولـم أَرَ مـن حـرزٍ أَلـوذ بظِلّـه ولا مـن لـه بالحادثـات يـداني
فزعـتُ إلـى مـن ملّـك الـدهر كَفَّـه ومـن لـيس ذو مُلـك لـه بمـرانِ[1]

عرفَ السهيلي حقيقة الزمان، وسطو الدهر، لذا توجه إلى الله سبحانه وتعالى فشعر بالإيمان المطلق، بأن حادثات الدهر تصيب القوي والضعيف، البعيد والقريب، فلم يجد منجداً إلاَّ الله سبحانه وتعالى، لهذا فقد دعاه ورجاه، وشكى له حاله، وبعد هذا الإيمان وهذا الرجاء، أَطمأن الشاعر، وأَصبح لا يخشى الدهر ولا الزمان، بل إنَّه عاد ليؤمن بقضاء الله وقدره، علَّهُ ينال استقراراً ولو لقليلٍ من الوقت. وله أبيات بلغت ذروة التحسر وجداً على وطنه – وادي سهيل – وقد سلب منه إلى غير رجعة، بعد أن دخله النصارى فخربوه وعاثوا فيه فساداً[2]:

(من الكامل)

يـا دارُ أَيـن البـيضُ والآرامُ أَم أَيـن جيـرانٌ علـيّ كـرامُ
رابَ المحـبَّ مـن المنـازل أَنَّـه حَيَّـى فلـم يرجـع إليـه سـلامُ
لمـا أَجـابني الصَّـدى عـنهم ولـم يَلِـجِ المسـامع للحبيـب كـلامُ
طارحـتُ وُرق حمامهـا مترنِّمـاً بمقـال صـبٍّ والـدموعُ سـجامُ[3]

إنَّ المتأمل في هذه الأَبيات، يشعر بعاطفة جياشة، تجاه وطن السهيلي أَو مدينته لما تحمله الكلمات من تعبير الحرمان والتحسر والفراغ. إنَّ البصمات التي خلفها وراءه الاحتلال، تركت أَثراً بارزاً في نفسية السهيلي، لذا جاءت أَبياته هكذا فيها الضعف والعجز، والتذكير بالنقص.

(1) الإحاطة: 3/ 365.
(2) ينظر: المكان في الشعر الأندلسي من عصر المرابطين حتى نهاية الحكم العربي (484هـ - 897هـ)، الدكتور محمد عويد الطربولي، دار الرضوان للنشر والتوزيع، ط1، 2011م: 403.
(3) المغرب: 1/ 448.

إنّ طابع الحزن يبدو عنيفاً أَصيلاً عند السهيلي، ولكن عندما قال هذه الأبيات استجمع كل ما أُوتي من مجامع الأَحزان – عاهة، سوء تكيف، شك، مدينة منكوبة – فصبها في قالب شعري.

أَمَّا أَبو القاسم الشاطبي[1] (ابن فِيْرُّة)، (ت 590هـ)، فقد قال: **(من الكامل)**

خالصْتُ أَبنـاء الزمـان فلـم أَجـد مَـن لـم أَرم منـه ارتيـاديَ مخلصـي
رَدُّ الشـبابِ وقَـد مضـى لسـبيله أَهيا وأَمكن من صديقٍ مخلصِ[2]

لقد مزج ابن فِيُّرة ما بين وفاء الناس والزمان، حتَّى سخط من الزمان ومن الناس معاً. إنْ عجز ابن فِيرَّة من أن يجد إنساناً مخلصاً يصاحبه، يشير إلى عدم تكيفه مع المجتمع، وكل هذا بسبب إخفاء الشاعر لعاهته مما ولَّد لديه اغتراباً نفسياً وتنحياً عن المجتمع، ولم يكن تنحيه إلاَّ بسبب نظرة الناس إلى المكفوف نظرة اشمئزاز أو عطف أَحياناً، لذا نرى أن الشعراء المكفوفين لم يتوافقوا مع الزمان، وأَخذوا منه مواقف حساسة.

أما التطيلي الأَصغر – إبراهيم بن محمد- فقد كان له رأي آخر في ذكر المواضع والأماكن، فقد هجا إشبيلية (حمص) في قوله: **(من البسيط)**

إنْ تجفُ حمصٌ فتجفو غير ذي رحمٍ تعصّـباً لبنيهـا فيـه إذ مجـدا[*]
وغاظهـا إنْ رأت إنجـاب ضـرّتها مَـن رأى كرمـاً فـي نـدِّه حقـدا
فـإن نمتنـي وليـداً دارُ قرطبـةٍ وأنكرتنـي وسـنّي قـد وفـي رشـدا

(1) القاسم بن فيرُّة، ابن أبي القاسم خلف بن احمد الرعيني، الشاطبي، المقرئ، الضرير، احد الأعلام، ولد بشاطبة، أحد ثغور الأندلس، وبها نشأ، وقرأ القران، وتعلم النحو واللغة، وتفنن في قراءة القران، والقراءات وهو حدث، وقرأ الناس عليه في بلده. نظم قصيدة طويلة في القراءات أودعها كتاب (التيسير) في القراءات تسهيلاً لحفظها وعليها أكثر القراء إلى اليوم. مات في يوم الأحد بعد صلاة العصر، وهو اليوم الثامن من بعد العشرين من جمادى الآخرة سنة تسعين وخمسمائة. تنظر ترجمته: اِنباه الرواة: 4/ 160؛ والتكملة لكتاب الصلة: 4/ 73 – 74؛ ونكت الهميان: 213؛ وبغية الوعاة: 2/ 260؛ والنفح: 2/ 22 – 25.

(2) النفح: 2/ 23.

(*) حمص هي إشبيلية، وشكواه منها تشبه شكوى التطيلي الأكبر.

فعـــذرها أن أم الليـــث ترضـــعهُ شـبلاً وتمنـعُ منـه دَرَّهـا أَسـدا[1]

إنّ (المكـان يشـير إلـى دلالات رمزيـة لأشـياء ومواقـف أَو حـوادث كـان لهـا حضور عند الشاعر)[2]، لذا أَشار التطيلي الأصغر إلى موضعين مختلفين لمدينتين متباينتين في نظره، فمثلت له إشبيلية (حمص)_ التي سكنها بعد رحيله من قرطبة_ سخطاً دائماً، وغضباً مستمراً تجاهها.

أَمَّا قرطبة (قاعدة الأَندلس وأَم مدائنها)[3] فقد أحبها؛ لأنّه ولد فيها، وترعرع، فأَكل من خيراتِها، وشرب من مياهِها.

لم يكن المكان هو السبب الرئيس لراحة الشاعر المكفوف، بل إنّ سكّانها لهم الأَثر الأَكبر في ذلك. وهذا عامل نفسي يحمله كل إنسان.

وأَمَّا محمّد بن محمّد النُّمري، فله، حين كتب إلى زوجه وهو نازح عنها ببعض البلاد: **(من الطويل)**

وراحَت فراح الروح أثر رحيلها وودّعتُ صبري حين ودَّعها كبدي
وصارت لي الأيام تبدو لياليا وقد كان ليلُ الوصل صُبحا بها يبدي
فساعاتُها كالدهرِ طولاً وطالما حكى الدهر ساعات بها قِصرّا عندي[4]

لم يحّمل الشاعر الزمان ما لا يطيق، فقد جعله في حالة منصفة في العطاء والحرمان.

ويبدو أَن الزمان عند المحبين يتخذ (نمطين من الطول أَو القصر، ففي الشوق أو البعد يَصحبهُ ضيق وحزن فيبدو الزمن طويلاً جداً، أَمَّا في حالة وصال المحبين،

(1) تحفة القادم: 40.
(2) جماليات المكان في شعر عرار، د. تركي المفيض، مجلة مؤتة للبحوث والدراسات، عمان، مج 4، ع2، 1989م: 219.
(3) الروض المعطار: 456.
(4) الإحاطة: 3/ 20.

فيبدو الزمن قصيراً، وكأنّه يمر بسرعة، لذلك يشعر المحبون بطول الزمن في حالة القلق والخوف، بينما يشعرون بقصره في حالة الأمن والسرور)[1].

إنّ شكوى الشاعر وجدت لها ثنائية رائعة في الغياب والحضور، ففي الحضور يشعر بأَنَّ الزمان يكون لمصلحته، وأنّ الأيام تزهو، والليالي تزدهر، والعمر يُسرع، لشدة فرحه، وإنْ كان العكس – الغياب – فإنّه يرى أنّ الزمان يقف أمام أَفكاره، ويسد عليه تقدمه، فلا يجعله يفرح أو يحاول أَنْ يفرح، وأنّ السعادة الحقيقية التي يطلبها الشاعر هي بوصل زوجه والمكوث معها.

ويأتي ابن جابر بعد النُّمري ليطالعنا بأَشعاره. فقد كان له شأن في ذكر المكان والزمان، ودلالتهما لما ينماز به في مدح الرسول (ﷺ). فقد قال:

(من البسيط)

بطيبـــة انـــزل ويمِّـــم سَـــيّدَ الأُمـــمِ وانشُر لـه المدح وانثر أطيب الكِلِمِ[2]

إنّ هذا الموضع – طيبة – له خلود زمني ومكاني في نفس المسلم ومشاعره وعواطفه، فهي مكان رسوله الأَمين (ﷺ) وهي مركز استقطاب المسلمين في كل أَنحاء العالم، لذا نرى ابن جابر قد أكثر من ذكرها في أَشعاره وأَحبها حباً كبيراً كحبه لساكنِها، حتَّى كان له ديوان كامل في مدح الرسول (ﷺ) وهو (نظم العقدين في مدح سيد الكونين). ومن شدة حبه لتلك الديار والأَماكن المقدسة، تصور أَن الحب أَصاب الحيوانات أيضاً لقوله: **(من الكامل)**

دَعْهَـا فـإنّ الشـوق يَجـد بهـا إلـى تلـك الـديار وإنْ يكـن ليـلُ سَـجَا
يـا أَيّهـا الحـادي وشـوقُك شـوقنا سـر عـن يمـين الـواديين معرّجَـا
واسـلُك بـأَعلى الـرقمتين(*) وخـذ إلـى دار النبـوة والهدايـة مَنهَجَـا[1]

(1) الزمن في شعر ابن حمديس الصقلي: 7.
(2) الحلة السيرا في مدح خير الورى: 28.
(*) موضع قرب المدينة. (معجم البلدان، تأليف: شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي (ت 626هـ)، دار صادر – بيروت، ط2، 1995م: 3/ 58)

ويستمر ابن جابر في حبه لتلك الديار، حتَّى إنّه أَصبح يبعث السلام إلى نجدٍ مع مَن ذهب إليها، وكأنّه يريد أَنْ يثبت إيمانه بالله، وحبه لرسوله (ﷺ)، لقوله:

(من الطويل)

إذا جئتَ نجداً كرّم اللهُ عهدَهُ فسلم على أَهل المنازلِ مِن نجدِ
لئن حال بُعد الدار بيني وبينهم فإنّي لأَرعاهم على ذلك البعدِ[2]

بل إنَّ حبه لتلك الديار جعله يزهد كل الديار والمواضع إلاَّ مواضع طيبة، ونجد، وغيرها من الأماكن المقدسة. فقد قال:

(من الطويل)

دعِ الدارَ وارحل للذي جاءَ بالبشرى وبع داركَ الدنيا مِن اللهِ بالأُخرى[3]

لقد أَصبح ابن جابر بهذا الحب العظيم، يتوسل بكل من اتجه إلى تلك الديار أَنْ يقلَّهُ معه، لإنّ بقاءه سيهلكه، وإنْ لم يرحل: **(من الخفيف)**

أَيّها المُتهِمُون(**) نفسي فداكم أنجدوني على الوصولِ لنجد
وقفوا بي على منازل ليلى فوجودي هناك يُذهبُ وجدي[4]

يمكن القول أن ابن جابر عند إظهار حبه لتلك الديار وشوقه إليها، أنشأت له إمكانية نفسية، أَشعرته بالراحة والطمأنينة والاستقرار، وكأنه على علاقة وشيجة بتلك الديار، حتَّى يشتاق إليها في كل حين.

---

(1) شعر ابن جابر: 31.
(2) م. ن: 43.
(3) شعر ابن جابر : 70.
(**) المتجهون إلى تهامة، وتهامة: الأَراضي الواقعة شرق البحر الأحمر، ومنها مكة. (معجم البلدان: 2/ 63)
(4) شعر ابن جابر: 69.

أَمَّا الزمان عند ابن جابر فقد اتخذ صورة التشاؤم والصراع الدائم الذي لا ينقضي، وأنّ النكبات التي تأَتي من الزمان لم تكن عفوية، بل إنَّها جاءت عمداً، فقد قال في هذا المعنى: **(من الطويل)**

رماني هذا الزمانُ عمداً فما أَخطا وحكمتُهُ في مهجتي فأَبى القِسطا[1]

أَبدى ابن جابر تهكمه على الزمان وصروفه؛ لأنّه لم يعطه شيئاً، ولذا لم نجده يميل إليه إلاَّ في أَوقات الحب والغرام فإنّه ينصف الزمان ويثبت له الإعانة والستر، فقد قال:

(من الطويل)

رعى اللهُ أَيّاماً تقضَّتْ بِوَصْلِها بَسَطنا بها للأُنس ما بيننا بُسطا
وقد قُضِيَتْ من وَصْلِها كلُّ حاجةٍ وغطّى جناحُ الليل منهنّ ما غطّى
وكانت عيونُ الدهرِ نائمةً لنا فمهما سألنا فيه من أَملٍ نُعطى[2]

لقد دامت راحة الشاعر من الزمان لبعض الوقت، حتّى أراد أنْ يعتذر من الدهر؛ لأنّه قال فيه ما لا يستحق، بل أراد أن يفديه بنفسه لقوله: **(من الطويل)**

أَرى الدهر قد أَضحى بقربكَ مُحسِناً فعفواً لدهر بالبعادِ أَساءَ
ألا أيّها الدهر الذي جادَ بالرَّضا فِداؤكَ نفسي إنْ أَردتَ فِداءَ[3]

يعود ابن جابر إلى ما بدأَ به، من تحذيره من الزمان، وكيف يتلاعب بالناس، حتَّى يودي بهم في النهاية إلى الموت. فقد قال: **(من الرمل)**

(1) ديوان المقصد الصالح: 47.
(2) ديوان المقصد الصالح : 48.
(3) ديوان المقصد الصالح : 57.

لعبت في شملنا أَيدي الليالي ... وكذا تفعل في الناس الدّهورُ
إنَّما النَّاس مع الدنيا نجومٌ ... بعضها يطلُع والبعضُ يغورُ
لا يزال الناسُ في هذا إلى أنْ ... تذهبَ الدنيا كما شاء القديرُ
أَنا كالطائرِ لا يأوي لوكر ... كلَّ يوم لي في ارض مَسِيرُ
قد خبرتُ النَّاسَ من قاصٍ ودان ... فأنا اليوم بمَن فيها خبيرُ[1]

يريد أَنْ يثبت في هذه الأَبيات أَشياء منها: أنَّ الحياة لا تدوم، والسعادة لن تستمر؛ لأنَّه عرف أن (دوام الحال من المحال)، ويثبت الموت الذي لا مفر منه، ولا مهرب، بحكمة عميقة تنم على سعة إدراكه للحياة، وكذلك يريد أنْ يثبت تنقله وحبه للسفر، (ففي السفر ينسجم الإنسان مع الناس ويتعرف على أناس غير الذين يعرفهم وعلى أَماكن غير التي تعودها وعلى أَمور لم يعهدها)[2]، وكذلك أَراد أَنْ يستر عاهته، بمكابرته الواضحة، إنَّ المكابرة جاءت لتبين نفسية شاعرنا وما يتخللها من قلق وتقلب كتقلب الليالي وتغير حالها.

أَمَّا الشاعر عبد الله بن يعقوب الأَعمى[3]، الذي كان يعرف بـ (عبود) فقد أَثبت أَثبت ما أَثبته الواقع، بأن الزمان متقلب، والدهر متلون، وأنَّ الإنسان لا بدَّ من أَنْ يرى الأَحزان، كما رأَى السعادة، لقوله: **(من البسيط)**

(عزُّ الفتى في الحياة مَالُه ... وذلُّهُ في الورى) سؤَالُه
لا تغترر باعتدال حالٍ ... فَعَن قليل تُرَى زَوَالُهُ

(1) ديوان المقصد الصالح : 257.
(2) المكفوفون بين التعليم والتأهيل، الدكتور خليل محمد إبراهيم، دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد، بغداد، ط1، 2008م: 70.
(3) عبد الله بن يعقوب، يعرف بـ (عبود)، كان أَعمى كثير الانتجاع للملوك عالماً بالأَدب مدرساً له له في أَيام حكم المستنصر. علماً أني لم أجد له سنة وفاة في المصادر. تنظر ترجمته: كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، تأليف: الشيخ أبي عبد الله محمد بن الكتاني الطبيب، (توفي قريباً من سنة =عشرين وأربعمائة)، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الثقافة – بيروت، 1966م: 320؛ وجذوة المقتبس: 258؛ وبغية المتلمس: 327؛ وموسوعة شعراء الأندلس: 225.

وكمـــــا قـــــد تـــــراه حَتمـــــاً لا بُـــدَّ مـــن أَن تحـــول حالُـــه[1]

يخشى عبد الله بن يعقوب الزمن وتحوله، ويصل خوفه إلى الذروة؛ لأنّه يربط بينه وبين الفقر، وما أسوأ أن تجتمع هذه الأمور على المكفوف – عاهة، وزمان قاس، وفقر – فتجعله يزداد مِحنة فوق مِحنته، وظلمة فوق ظُلَمِته.

أمَّا بكر الأعمى[2] فلم يكن حاله يختلف عن حال قرينه عبد الله بن يعقوب، إلاَّ أَنّه لم يكن سخطه على الزمان وحسب، بل على الناس أيضاً؛ لأنه كان يشعر بأَنَّ الزمـــــان غيـــــر منصـــــف فـــــي قســـــمته. يقـــــول:

(من الكامل)

قُلِـــبَ الزَّمـــانُ فجـــاءَ بـــالمقلُوبِ وتظـــاهرت آيـــاتُ كـــلِّ عجيـــبِ
لا تيأســـنَّ مـــن الـــوزارةِ بَعـــدَما نـــال ابـــن أرقـــم* خُطَّـــةَ التأديـــبِ[3]

إنَّ سخرية بكر الأعمى من الزمان جاءت نابعة من يأَسه منه وكيف يسير مع الناس، فهو لا ينصفهم ولا يعطيهم ما يستحقون، بل إنّه يزيد الغني غنىً، ويزيد الفقير فقراً.

ومن هذا كله فقد كان الزمان على الشاعر المكفوف الأَندلسي دواراً لا يقر له قرارٌ، ولا يثبت له حالٌ، والشاعر في ذلك كله لا يملك شيئاً، بل هو أَشبه ما يكون بريشةٍ في مهب الريح.

أَمَّا المكان فإنَّه يكتسب هويته من هوية الإنسان[4]، وإنه لا بدَّ أَن يتأثر به، ويأَخذ طباعه، مهما طال الزمان.

---

(1) بغية المتلمس: 327.
(2) بكر الأعمى، أديبٌ، شاعرٌ، لا نعرف السنة التي ولد فيها أو التي مات فيها. تنظر ترجمته: جذوة المقتبس: 179؛ بغية الملتمس: 227.
(*) عبد العزيز بن محمد بن أرقم، أبو الأصبغ النميري، أديب أندلسي، من الرؤساء السفراء من أهل وادي آش، سكن المرية، وتأدب في غرناطة وقرطبة، توفي سنة 485هـ. (الأعلام:288/1)
(3) جذوة المقتبس: 179.
(4) ينظر: غائب طعمة فرمان روائياً: 155.